بين صيامنا وصيام الأمم السابقة!

تشتمل آيات صيام رمضان وهي التي جاء فيها تشريع صيام شهر رمضان وإيجابه على المسلمين على وجه الخصوص، على دلالة صريحة على وجود نوع عبادة الصيام في الأمم السابقة، وقد تختلف الكيفية طبعا، يقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، والتشبية بحرف الكاف (كما) واسم الموصول تحيل إلى جهة التقارب بين صيامنا وصيام بعض الأمم السابقة.

لهذا السبب اعتبر المفسرون تعريف كلمة الصيام في الآية بـ(ال) يفيد المعهود الذهني، وذلك لأن العرب كانت تعرف الصيام، وأن المقصود منه الإمساك عن الأكل والشرب، بل كانوا قبل الإسلام يصومون عاشوراء، وبعث الرسول ﷺ وكان يصوم معهم عاشوراء قبل نزول هذه الآية الكريمة، فخصصت شهر رمضان كاملا بالصيام من بين شهور السنة، وأوجبه على المسلمين.

قال ابن عاشور مشيرا إلى فائدة التعريف في كلمة الصيام من الآية: "فالتعريف في الصيام في الآية تعريف العهد الذهني، أي كتب عليكم جنس الصيام المعروف. وقد كان العرب يعرفون الصوم، فقد جاء في «الصحيحين» عن عائشة قالت:

"كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش في الجاهلية» وفي بعض الروايات قولها: «وكان رسول الله يصومه".

وعن ابن عباس "لما هاجر رسول الله إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال ما هذا، فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى، فنحن نصومه فقال رسول الله: نحن أحق بموسى منكم فصام وأمر بصومه.

أما معنى سؤال النبي ﷺ ليهود المدينة هو السؤال عن مقصد اليهود من صومه لا تعرف أصل صومه.

وفي حديث عائشة «فلما نزل رمضان كان رمضان الفريضة وقال رسول الله من شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لم يصمه، فوجب صوم يوم عاشوراء بالسنة ثم نسخ ذلك بالقرآن .. فالمأمور به صوم معروف زيدت في كيفيته المعتبرة شرعا قيود تحديد أحواله وأوقاته.

ما الفرق بين صيام المسلمين والأمم السابقة؟

يختلف صيام المسلمين عن صوم الأمم السابقة سواء في الكيفية أو الشروط والضوابط التي ترتبط به، وليس لدينا بيان كاف عن طريقة الصيام من الأمم التي جاءت قبلنا، لكن وجدت إشارات من الأحاديث الصحيحة تثبت طرفا يوضح لنا أثر الصيام عند بعض الأمم والملل، وتأتي الروايات في ثلاثة أوجه وهي:

1- كتب على الأمم قبلنا صيام ثلاثة أيام من كل شهر، فعن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام يوم عاشوراء، فصام تسعة عشر شهرا من ربيع الأول إلى رمضان، ثم قال: إن الله قد افترض عليكم شهر رمضان.

وجاء عن ابن عباس أنه قال﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: 183]، وكان ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخ الذي أنزل الله من صيام رمضان.

وقال الضحاك: كان الصوم الأول، صامه نوح فمن بعده حتى صامه نبي الله ﷺ وأصحابه، وكان صومهم من كل شهر ثلاثة أيام إلى العشاء. وهكذا صامه النبي ﷺ. وروي عن عطاء وقتادة، أنهما قالا: كتب على من قبلنا ثلاثة أيام كما قاله ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم.

2- أنه فرض على الأمم قبلنا شهر رمضان بالتحديد كما كتبه الله على هذه الأمة، جاء في حديث عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم.

وقال الحسن البصري: قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فقال: نعم والله، لقد كتب الصيام على كل أمة خلت كما كتبه علينا، شهرا كاملا وأياما معدودات عددا معلوما. وروي عن السدي نحو ذلك.

3 – أن صيام هذه الأمم كان من الليلة إلى الليلة، جاء عن ابن عمر، أنه قال: أنزلت كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم كتب عليهم أن أحدهم إذا صلى على العتمة ونام، حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها.

وروي عن ابن عباس وأبي العالية وعبد الرحمن بن أبي ليلى ومجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس وعطاء الخراساني، نحو ذلك[1].

وقد اختار الطبري، أن شهر رمضان بكامله فرض على المسلمين كما فرض على الذين من قبلهم من أهل الكتاب، وأنه "أيامًا معدودات"، وهي شهر رمضان كله. لأن مَن بعدَ إبراهيم ﷺ كان مأمورًا باتباع إبراهيم، وذلك أن الله جل ثناؤه كان جَعله للناس إمامًا، وقد أخبرنا الله عز وجل أن دينه كان الحنيفيةَ المسلمةَ، فأمر نبينا ﷺ بمثل الذي أمر به مَنْ قبله من الأنبياء.

وأما التشبيه، فإنما وقع على الوقت. وذلك أن مَنْ كان قبلنا إنما كان فرِض عليهم شهر رمضان، مثل الذي فُرض علينا سواء.

ويظهر من كل ما سبق أن الصيام فرض على الأمم السابقة ومنها أهل الكتاب اليهود والنصارى جملة، واختلف العلماء في بيان التفصيل والكيفية والوقت.

يقول ابن عاشور: حصل في صيام الإسلام ما يخالف صيام اليهود والنصارى في قيود ماهية الصيام وكيفيتها، ولم يكن صيامنا مماثلا لصيامهم تمام المماثلة. فقوله: كما كتب على الذين من قبلكم تشبيه في أصل فرض ماهية الصوم لا في الكيفيات، والتشبيه يكتفى فيه ببعض وجوه المشابهة وهو وجه الشبه المراد في القصد.

ما هي مقاصد التشبية بين صيامنا وصيام الأمم السابقة؟

تعددت مقاصد الصيام ونشرت حولها مقالات متنوعة، وأما المطلوب هنا فهو إبراز الهدف من التشبيه أو المقارنة التي ربطبت بين صيام المسلمين وأهل الكتاب من الأمم السابقة.

وقد تطرق ابن عاشور إلى بعض المقاصد والأغراض التي يحققها التشبيه الواقع في آيات الصيام بين فرضية صوم رمضان على المسلمين، ومقارنتها بصيام الأمم التي قبلنا، يقول:

1 – الاهتمام بهذه العبادة، والتنويه بها لأنها شرعها الله قبل الإسلام لمن كانوا قبل المسلمين، وشرعها للمسلمين، وذلك يقتضي اطراد صلاحها ووفرة ثوابها.

ويساهم كذلك في إنهاض همم المسلمين لتلقي هذه العبادة كي لا يتميز بها من كان قبلهم. وكان المسلمون يحبون التفضيل على أهل الكتاب وقطع تفاخر أهل الكتاب عليهم بأنهم أهل شريعة قال تعالى: أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة [الأنعام: 156، 157] .

فلا شك أنهم يغتبطون أمر الصوم وقد كان صومهم الذي صاموه وهو يوم عاشوراء إنما اقتدوا فيه باليهود، فهم في ترقب إلى تخصيصهم من الله بصوم أنف، فهذه فائدة التشبيه لأهل الهمم من المسلمين إذا ألحقهم الله بصالح الأمم في الشرائع العائدة بخير الدنيا والآخرة.

2 – أن في التشبيه بالسابقين تخفيفا على المكلفين بهذه العبادة أن يستثقلوا هذا الصوم فإن في الاقتداء بالغير أسوة في المصاعب، فهذه فائدة لمن قد يستعظم الصوم من المشركين فيمنعه وجوده في الإسلام من الإيمان ولمن يستثقله من قريبي العهد بالإسلام، وقد أكد هذا المعنى الضمني قوله بعده: أياما معدودات.

3 – إثارة العزائم للقيام بهذه الفريضة حتى لا يكونوا مقصرين في قبول هذا الفرض بل ليأخذوه بقوة تفوق ما أدى به الأمم السابقة.[2]

[1] «تفسير ابن أبي حاتم» (1/ 305)

[2] «التحرير والتنوير» (2/ 157)